

أضواء البيان

@ 109 @ بِرَقُوءٍ وَاسْمَعُوا ° { فكله يساوي قوله : { وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنْزَلْنَاهُ رِسُولًا لِّسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ } ، لأن قد هنا للتحقيق ، ومع ذلك يؤذونه بقولهم : { سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا } ويؤذونه بأن أشربوا في قلوبهم حب العجل وعبادته بكفرهم ، ولذا قال لهم : { بئس سماعياً يأمرُكمُ به إيمانُكمُ إن كنتم مّؤمنين } . . .
وقد جمع إيذاء الكفار لرسول الله مع إيذاء قوم موسى لموسى في قوله تعالى : { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُلْقِيَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ } . . .

ومن مجموع هذا يتبين أن الإيذاء المنصوص عليه هنا هو في خصوص الرسالة ، ولا مانع من أنهم آذوه بأنواع من الإيذاء في شخصه ، وفي ما جاء به فبرأه مما قالوا في آية الأحزاب وعاقبهم على إيذائه فيما أرسل به إليهم بزيغ قلوبهم ، والعلم عند الله تعالى . . .
وقوله : { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } ، تقدم كلام الشيخ رحمة الله تعالى عليه على هذا المعنى في سورة الروم ، عند الكلام على قوله تعالى : { ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ } . . .

وقال : إن الكفر والتكذيب قد يؤدي شؤمه إلى شقاء صاحبه ، وساق هذه الآية { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } .

وقوله : { فَوَيْ قُلُوبُهُمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا } . . .
وأحال على سورة بني إسرائيل على قوله : { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِئَةً إِذَا فِئَهُمْ وَقُرْآنًا } . . .

وعلى سورة الأعراف على قوله : { فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ } . . .

ومما يشهد لهذا المعنى العام بقياس العكس قوله تعالى : { وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } وأمثالها . . .

ومما يلفت النظر هنا إسناد الزيغ للقلوب في قوله تعالى : { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } .